خوزيه سارماغو:
التشاؤم أملنا الوحيد

يخرج جوزيه سارماغو، الحائز على جائزة نوبل للآداب، من مأدبة أقيمت على شرفه، ليقول في عصر يوم مشمس، وسماء صافية، إن كلمة واحدة تلخص مشاعره في تلك اللحظة: «الضجر». «لا أرى الناس يمشون على أقدامهم» يقول عبر المترجم، ردا على سؤال ما إذا كانت زيارته القصيرة إلى الولايات المتحدة، التي يلتقي خلالها بناشره، ممتعة.

«لا أرى سوى سيارات، ولا أفهم لماذا، يمكن فهم الجانب المادي، ولكن لا يمكن فهم الجانب الإنساني، لماذا لا يمشي الناس؟ فالسفر عبر سيارة كل الوقت يشبه العيش في سفينة فضائية تحميهم من كل شيء. على أية حال، إذا كان الأميركيون سعداء، فهذا شأنهم».

لا يبدو التفوّه بعبارات كهذه خروجا على المألوف، بالنسبة لسارماغو، اليساري المخلص، الذي يصف نفسه بالمتشائم، ويدلي بتصريحات جارفة. وعندما يطرح عليه سؤال محدد، يرد بالرمز أو المجاز. ومصدر الغرابة في شكواه من ثقافة أميركا الآلية يتمثل في المكان الذي قيلت فيه:

في منهاتن، في منتصف النهار، بعد تجاوز حشد من المارّة على مهل، ويبدو أن هؤلاء كانوا غير مرئيين في النظرة الحكيمة للمؤلف. يخرج الإنسان، أحيانا، بانطباع أن كلام سارماغو يصدر عن واقع بديل، لا يراه أحد سواه.

تقول: انظر إلى الناس في الشارع، وتسأل عن أميركا، يرد بابتسامة ماكرة تفحم السائل: «ولكن نيويورك ليست أميركا».

ولد سارماغو في العام ١٩٢٢ لعائلة من الفلاحين. كان جداه يربيان الخنازير، واشتغل أبوه شرطيا، وفي الحرب العالمية الأولى كان ضابط مدفعية. وهو تعلّم ليشتغل في الحدادة، وتصليح السيارات. ذاع صيته في

العالم في وقت متأخر، على عتبات الستين، وقد اشتغل موظفا حكوميا، قبل العمل في مجال النشر في البرتغال، كمدير للإنتاج، ومترجم، ومحرر.

في العام ١٩٤٧ نشر رواية بعنوان «أرض الخطيئة»، ولم ينشر روايته التالية إلا في العام ١٩٧٧ بعنوان «دليل الرسم والخط». وقد علّق على فترة الانقطاع أكثر من مرّة: «لم يكن لديّ ما أقوله، لذلك صمت».

ورغم المسيرة البطيئة في السابق، تقدم سارماغو مسرع الخطى على مدار ربع القرن الماضي، ليصبح أهم كاتب أنجبته البرتغال، والفائز بجائزة نوبل للآداب في العام ١٩٩٨. يقول عنه الكاتب والناقد هارولد بلوم: إنه ليس واحدا من أفضل الروائيين الأوروبيين وحسب، بل أحد العبقريات القليلة بين الأحياء في عالم اليوم. والكتاب الأخير للبروفيسور بلوم، الصادر بعنوان » العبقرية: موزاييك لمائة عقل مبدع»، ينسجم مع هذا الكلام.

يعيش سارماغو في الوقت الحالي في جزر الكناري، مع زوجته الصحافية الأسبانية بيلار دل ريو، وكلابهما، وهي الحيوانات ذات الحضور البارز في رواياته باعتبارها ترى، وتقدم العون، والتعاطف، وتمتاز بالإدراك أكثر من بني البشر. وقد انتقل للعيش في جزيرة لانزروتي في العام ١٩٩٢، بعد خلاف مع الحكومة البرتغالية، التي أدانت إلى جانب الفاتيكان، روايته «الإنجيل حسب يسوع المسيح».

تقول مترجمة رواياته إلى اللغة الإنكليزية مارغريت جل كوستا، التي عرفت الكاتب للمرّة الأولى بعد قراءة «الإنجيل حسب يسوع المسيح»: إن «أعماله تمتاز بقوة بصيرة نادرة المثال». ترجمت مارغريت أحدث أعمال سارماغو: «كل الأسماء» و «الكهف»، و«الرجل المستنسخ». تقول: إن «الإنجيل حسب يسوع المسيح سحرها بفضل ما فيه من فطنة، ومشاعر إنسانية، ومخيّلة قوية». لا أحد يجاري سارماغو، من حيث حس الفكاهة والسخرية، في معالجة الموضوعات السياسية والأخلاقية، ربما منذ كافكا ـ أحد الكتّاب الذين كثيرا ما يُقارن بهم ـ وقد يتفوّق على كافكا من حيث نزعته الإنسانية، وقدرته على خلق الإحساس بالأسى في جملة واحدة. شخصياته، كما قال: «أكثر حكمة وأفضل منه» دائما.

يتخلل كلام سارماغو ـ كما يدرك السامع ـ إحساس بالتشاؤم، وبأن كل كلمة يقولها يجب أن تتحلى بالصرامة الفلسفية. في حفل للغداء أقيم احتفالا بصدور «الكهف»، يعكر المزاج الجمعي عند انتقاده لسلوك بني البشر، مستشهدا بكلام لكونراد لورنز، النمساوي المختص بعلم السلوك لدى الحيوان، والحائز مثله على جائزة نوبل: «لقد اكتشفت أن الحلقة بين الحيوان والإنسان المتحضر، هي نحن». ويكرر هذه العبارة في المساء، خلال مداخلة له مع هارولد بلوم في مكتبة نيويورك العامة. وعند جلوسه في مكتب ناشر كتبه يقول بتجهم: «اللغة تكاد تموت كل يوم، الثقافة تموت كل يوم».

يقول: «ربما لا توافق على هذه النظرة المتشائمة، ومع ذلك، إذا كانت ثمة وسيلة لتحويل العالم نحو الأفضل، يمكن القيام بها عبر التشاؤم فقط، المتفائلون لن يغيّروا العالم نحو الأفضل، أبدا». يعبر سارماغو في كتابته الروائية عن الميل نفسه إلى التصريحات الكبيرة، فبعض موهبته يقوم على براعته في نقل أفكاره

عبر مجازات، وحكايات رمزية تمتاز بقوة وتأثير النبوءات. ورغم أن المجازات قد تبدو مألوفة، وغنية عن التعريف، عند سردها من جديد، إلا أنها تبدو على الورق طازجة إلى حد بعيد، وذات نظر ثاقب، وبصيرة حادة.

رواية «العمى» الصادرة في العام ١٩٩٥، هي أكثر أعماله شهرة، وهي عبارة عن رؤية ذكية، ومرعبة، لمجتمع فقد نعمة البصر. يقول سارماغو إن الرواية بدأت بسؤال من جملة واحدة: «ماذا يحدث إذا فقدنا جميعا قوتنا على الإبصار؟». يقول: «وجدت، عندئذ، الجواب، جميعنا كفيفون، لا نرى بعضنا فعلا، ولا نرى أنفسنا».

في «تاريخ حصار لشبونة»، وهي أكثر رواياته طرافة، يقوم مصحح متواضع الشأن، بتغيير الطريقة التي يذكر بها التاريخ، بإضافة كلمة واحدة فقط إلى نص يقوم بمراجعته. في «الطوافة الحجرية» يتخيل أن شبه الجزيرة الأيبيرية انفصلت عن أوروبا. تقول يفيت بيرو، كاتبة السيناريو لفيلم مستمد من الرواية، ويمثل المعالجة السينمائية الأولى لعمل من أعمال سارماغو: «إنها قصة متعددة الطبقات، تتخللها حكاية رمزية فلسفية، ومغامرات غريبة».

في روايته المعنونة «كل الأسماء»، يتم تصوير العالم كمكان تحكمه بيروقراطية عفا عليها الزمن، ويصعب فيها من ناحية فعلية التمييز بين الموتى والأحياء. «الكهف» على غرار «كل الأسماء» أكثر بساطة من أعماله الأولى، وهي قصة حب رقيقة ومؤثرة تتضمن نقدا لاذعا للرأسمالية، وهي أيضا رواية ساحرة، مكتوبة بلغة جميلة، رومانسية لم تعد متداولة في عالم اليوم، عن التأثير المدمر الواقع على حياة أناس عاديين، يكافحون من أجل البقاء، في مجتمع أصبحوا فيه من سقط المتاع.

يضطر خزّاف مسن في الرواية إلى البحث عن مهنة جديدة، بعدما أبلغه ممثل للمركز أن خدماته لم تعد مطلوبة. والمركز، هنا، مركب كافكاوي هائل الحجم للتسوّق والسكنى.

يقول سارماغو مفسرا:

«هذا ما يحدث على حين غرّة في كل مكان من العالم، يقول لك أحدهم: لم تعد مفيدا، ولم تعد لي حاجة بك بعد الآن. الإنسان شيء يمكن التخلّص منه كما نتخلص من الأشياء التي نشتريها من مركز التسوّق». الرواية في أحد جوانبها محاولة ساخرة وفلسفية لتنويع قصة الكهف الرمزية لدى أفلاطون، حيث البشر غير المتنورين سجناء في أصفادهم يراقبون الظلال. وهي، أيضا، على غرار أعماله السابقة، مليئة بالمجازات التعليمية.

يقول سارماغو:

«مراكز التسوّق هي النسخة الجديدة لكهف أفلاطون.. مركز التسوّق في الوقت الحاضر هو أكثر المناطق أمانا في أي مدينة، الأشياء نظيفة، ولامعة، ولا توجد نوافذ، في العادة، لمراكز التسوّق، تماما مثل الكهوف».

عموما، نجحت مجازات سارماغو، وأفكاره المستفزة على الصعيد الأدبي، بينما عادت عليه تعليقاته السياسية بالمتاعب، كما حدث، مؤخرا، عندما انضم لوفد من الكتّاب والفنانين، بينهم رسل بانكس، وول شوينكا، في الأراضي المحتلة من جانب إسرائيل.

في مكتب ناشر كتبه، يبدو سارماغو مرهقا من السفر، والمشي على أرصفة نيويورك المزدحمة، يبدو كقريب مسن يتأهب للقيلولة، ومع ذلك يتحرّق لمزيد من الحكمة.

يعود إلى كهف أفلاطون لعقد مقارنة مثيرة جديدة، لكنها عن نفسه هذه المرّة. في قصة الكهف الرمزية يحاول الفيلسوف تخمين ما قد يحدث، إذا تمكن أحد السجناء الكفيفين من فك أصفاده، ثم العودة إلى بقية السجناء لإخبارهم بما رأى من العالم. يفترض أفلاطون أن الرجل سيتعرّض للقتل لبوحه بالحقيقة. ويوحي سارماغو أنه مثل ذلك الفرد المنكود.

لم يعرف السجناء في كهف أفلاطون «أي نوع آخر من الواقع» يقول سارماغو: «وهناك الكثير من أوجه الشبه بين ذلك الوضع ووضعنا الخاص.. نحن نبتكر نوعا من الواقع ليناسب ما نريد، ونعتقد أن الواقع المزعوم الذي ابتكرناه لا يمثل الواقع الوحيد وحسب، بل يمثل ما نريد من الواقع، أيضا، ونتصرف بسلبية عندما يخبرنا أحد من الناس أن حقيقة العالم لا تنسجم بالضرورة مع ما نرى فيه حقيقة للعالم.

تنطبق هذه العبارة على سارماغو، بقدر ما تنطبق على بقية أفراد المجتمع، فهو متمسك بأفكاره الملتبسة أحيانا، كما يفعل كل واحد منّا. وهذا لا يعني أنه لن يرسخ في ذاكرة القرن العشرين، والقرن الحادي والعشرين كأحد أعظم الروائيين. روائي يعاني من قصر النظر [بالمعنى الطبي] لكنه يمكّن الآخرين من رؤية الأشياء بمزيد من الوضوح.

«مهمتي أن أقول ما أرى» يقول سارماغو بطريقة مباشرة: «وإذا افترضنا أنني في الكهف، سأكون مَن يذهب إلى الخارج لرؤية ما يجري، ويقول للآخرين ما رأى.. ومع ذلك، لن أنتظر في الكهف بل سأخرج قبل أن يتمكنوا من قتلي».

آدم لانغر

مجلة «بوك» ٢٠٠٢